المحاضرة الأولى

المعتزلة: التعريف والنشأة والأهمية في تاريخ علم الكلام

المحاضرة الأولى: المعتزلة؛ التعريف والنشأة والأهمية في تاريخ علم الكلام

تمهيد

تُعدّ المعتزلة من أبرز المدارس الكلامية التي أسهمت في تشكيل التفكير العقدي والفلسفي في الحضارة الإسلامية. ويدل اسمها، في الاستعمال الأشهر، على جماعة «اعتزلت» موقفًا كلاميًّا سائدًا في مسألة حكم مرتكب الكبيرة، ثم غدا الاسم دالًّا على مدرسة منظمة في علم الكلام اتخذت من التوحيد والعدل محورين جامعَين لبقية مباحثها.[1] ولا ينبغي فهم الاعتزال باعتباره مجرد خروج عن الجماعة أو رفض للنصوص؛ فالمعتزلة رأوا أنهم يدافعون عن أصول الإسلام باستعمال البرهان العقلي، ويؤسسون فهمًا ينسجم مع التنزيه الإلهي والمسؤولية الأخلاقية للإنسان.

أولًا: من هم المعتزلة؟

المعتزلة مدرسة كلامية عقلانية نشأت في البصرة خلال النصف الأول من القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، ثم امتد تأثيرها إلى بغداد ومناطق أخرى من العالم الإسلامي. ويُنسَب تأسيس اتجاهها المبكر عادةً إلى واصل بن عطاء (ت 131هـ/748م)، ثم ارتبط تطورها باسم عمرو بن عبيد، وتبلورت مباحثها على أيدي أعلام مثل أبي الهذيل العلاف، والنظّام، وبشر بن المعتمر، وأبي علي الجبائي، وأبي هاشم الجبائي، ثم القاضي عبد الجبار.[1] [2]ومن المهم علميًّا ألا يُنظر إلى هذه السلسلة بوصفها مذهبًا واحدًا متطابق الآراء؛ فقد نشأت داخل المعتزلة مدرستان كبيرتان، بصريّة وبغداديّة، وظهرت اختلافات في مسائل دقيقة تتصل بالطبيعة والإنسان والقدرة والأحوال واللطف. لذلك فالأدق أن نتحدث عن اتجاه معتزلي عام تشترك مدارسه في مبادئ كبرى، مع الاعتراف بتعدد الاجتهادات الداخلية.[1]

ثانيًا: نشأة التسمية والمسألة المؤسسة

تروي المصادر الكلامية والتاريخية رواية مشهورة مفادها أن واصل بن عطاء اعتزل حلقة الحسن البصري حين سُئل عن حكم مرتكب الكبيرة، فقال إنه في «منزلة بين المنزلتين»، أي ليس مؤمنًا ولا كافرًا من حيث الاسم الديني، بل فاسق، مع بقاء وصفه مسلمًا في أحكام الدنيا. ثم قيل إن الحسن البصري قال: «اعتزلنا واصل». غير أن الدراسات الحديثة تنبه إلى تعدد الروايات في تفسير الاسم، وإلى أن لفظ «الاعتزال» استُعمل قبل ذلك في سياقات سياسية ومحايدة؛ ومن ثم فالرواية المشهورة مفيدة لفهم الذاكرة المذهبية، لكنها لا تكفي وحدها لإعادة بناء النشأة التاريخية.[1] [3]

ثالثًا: السمات العامة للفكر المعتزلي

تقوم الرؤية المعتزلية على أولوية التنزيه العقلي لله، وإثبات عدله، والدفاع عن قدرة الإنسان على الاختيار، وقراءة النصوص المتشابهة بما يرفع التشبيه والتجسيم. ومن هنا رفض المعتزلة القول بقدم القرآن، لأنهم رأوا أن إثبات كلام قديم قائم بذات الله على نحو مغاير للذات قد يفضي إلى تعدد القدماء؛ فقرروا أن القرآن مخلوق حادث من جهة كونه كلامًا إلهيًّا مُبلَّغًا إلى البشر، مع بقاء الله وحده قديمًا.[2] كما أكدوا أن أفعال الإنسان الاختيارية منسوبة إليه حقيقة، لأن التكليف والثواب والعقاب لا يستقيم معناهما عندهم إلا مع القدرة والاختيار.

رابعًا: مراحل الحضور والتراجع

بلغ المعتزلة نفوذًا ملحوظًا في العصر العباسي، ولا سيما في عهد المأمون والمعتصم والواثق، حين ارتبط القول بخلق القرآن بسياسة المحنة التي بدأت سنة 218هـ/833م، ثم أُلغيت في عهد المتوكل نحو 234هـ/848م. ولا يصح اختزال تاريخ المعتزلة في المحنة؛ فقد استمر نشاطهم العلمي بعد زوال الرعاية السياسية، وازدهرت أعمالهم في البيئات البصرية والبغدادية والزيدية، وبقي أثرهم ظاهرًا في التفسير والجدل والفلسفة وأصول الدين.[1] [2]

خامسًا: أهمية دراسة المعتزلة

تنبع أهمية المعتزلة من أربعة أبعاد مترابطة. أولها أنهم أسهموا في تأسيس مناهج الاستدلال الكلامي، وربطوا مسائل العقيدة بمفاهيم الدليل والعلية والاختيار. وثانيها أنهم قدموا تصورًا أخلاقيًّا يجعل الإنسان مسؤولًا عن فعله، وهو ما منح مبحث العدل الإلهي بعدًا إنسانيًّا وتشريعيًّا. وثالثها أنهم واجهوا أسئلة فلسفية ودينية جديدة في عصر الترجمة، فطوّروا لغة جدلية أثرت في المدارس اللاحقة، حتى إن خصومهم استفادوا من أدواتهم في الرد عليهم. ورابعها أن دراسة تراثهم تساعد على فهم التعدد الداخلي في الفكر الإسلامي، وتمنع اختزال علم الكلام في مدرسة واحدة أو قراءة تاريخ الخلافات العقدية قراءةً تبسيطية.

خاتمة

المعتزلة مدرسة كلامية نشأت في سياق فكري وسياسي متحرك، وسعت إلى بناء عقيدة عقلانية تقوم على تنزيه الله وإثبات عدله ومسؤولية الإنسان. وتظل قيمتهم العلمية في أنهم نقلوا مسائل الإيمان من مستوى الجدل الموروث إلى مستوى بناء المفاهيم والحجج، مع ضرورة قراءة تراثهم قراءة تاريخية نقدية تميز بين أصولهم المشتركة وتنوعاتهم الداخلية.

مراجع المحاضرة الأول

[1]: Daniel Gimaret، “Muʿtazila”، Encyclopaedia of Islam, Second Edition، نص إلكتروني متاح كاملًا عبر Islamic Philosophy Online.

[2]: Shalahudin Kafrawi، “Muʿtazilites, Muʿtazila”، Encyclopedia of Islam and the Muslim World، مدخل متاح كاملًا عبر Encyclopedia.com.

[3]: أمل عبد الفتاح حسين إشتيه، حركة المعتزلة: دراسة تاريخية منهجية...، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، 2021، النص والبيانات متاحان عبر المستودع الجامعي وملف PDF المباشر.